إبراهيم باشا:

صعود لافت وسقوط مأساوي

يعد إبراهيم باشـا واحدًا من أبرز الشـخصيات في التاريخ العثماني، ليس فقط بسبب نفوذه ومكانتـه، بل أيضًا نظرًا للطريقة الدراماتيكية التي انتهـت بها حياته. وُلد إبراهيم في مدينة بارغا على الساحل اليوناني لعائلة مسيحية، وكان والده صياد سمك. في سن مبكرة، اختطف أو أُخذ ضمن نظام "الدوشيرمة"، لينقل إلى الأناضول حيث تبنته أرملة عجوز قامت بتعليمه الموسيقى واللغات التركية واللاتينية واليونانية.

في مانيسـا، التقى إبراهيم بالأمير سليمان ابن السلطان سليم الأول، الذي كان واليًا للمدينة. أعجب سـليمان بعرف إبراهيم واستدعاه إلى قصره، وعرض عليه مرافقته في حياته السياسية. وافق إبراهيم، ليبدأ من تلك اللحظة رحلة صعود غير مسبوقة.

مع مرور الوقت، تطورت علاقة سليمان وإبراهيم إلى صداقة وثيقة، وتلقى إبراهيم تعليمه إلى جانب الأمير، ليكتسـب خبرة ثقافية وإدارية واسعة. وعندما تولى سليمان السلطنة عام 1520م، أوكل إليه منصب "خاص أودة باشـي"، المسؤول عن جناح السلطان، وهو منصب يتطلب ثقة مطلقة. أدار إبراهيم الجناح بكفاءة لافتة، وعزز علاقاته داخل القصر، خاصة مع السلطانة الأم حفصة خاتون.

برز إبراهيم باشا كقائد عسكري موهوب خلال حملة رودس، وحقق النصر، ما دفع سليمان إلى تعيينه صدرًا أعظم وهو في الثامنة والعشـرين، في خطوة أثارت حفيظـة عدد من كبار رجال الدولة الذين رأوا في أنفسهم أحقية بالمنصب.

وبعد تعيينه، أرسل سليمان الوزير أحمد باشـا واليًا على مصر لامتصاص غضبه، لكن الأخير تمرّد، ما اضطر إبراهيم باشا إلى قيادة حملة ناجحة لإخماد التمرد. خلال وجوده في مصر، نظّم شؤونها الإدارية والمالية، وأصدر قانونًا سيُعرف لاحقًا باسم "قانون نامه مصر"، استمر العمل به لثلاثة قرون.

نفوذ إبراهيم باشا تضاعف بعد زواجه من السلطانة خديجة، أخت السلطان، ولقّب بـ"الداماد"، وأصبح الذراع اليمنى للسـلطان في الحكم. أوكلت إليه إدارة جلسـات الديوان، وساهم في الحملات العسكرية والدبلوماسية، خصوصًا تجاه أوروبا.

كان لإبراهيـم دور كبير فـي وضع خطة معركة موهاكس الشـهيرة، التي أدّت إلى سـقوط بودابست في يد العثمانيين، وأرغم الإمبراطور شارل الخامس على الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية على المجر.

لكن هذا النفوذ الهائل لم يكن محل ترحيب من الجميع. فقد كانت السلطانة خُرَّم (هيام) ترى في إبراهيم باشا تهديدًا لطموحاتها بتولية أحد أبنائها (محمد، سليم، بايزيد) العرش، خاصة أن إبراهيم تحالف مع السلطانة الأم والسلطانة ماه دوران لدعم الأمير مصطفى.

لم تكن علاقتـه بالحرملك متوازنة؛ فخُرَّم استشـعرت الخطر، وبدأت فـي حملة طويلة من المكائد والدسـائس لزعزعة ثقة السلطان فيه. كانت وفاة السـلطانة الأم حفصة خاتون عام 1534م نقطة تحوّل، إذ فقد إبراهيم أهم حامية له في البلاط، وأفسحت المجال لخُرَّم لتعاظم نفوذها.

كذلك، زادت الشـكوك حول إبراهيم باشـا بسـبب ألقابه التي اسـتخدمها، مثل "سر عسكر سلطان"، وقيامه بإصدار قرارات دون العودة للسلطان، منها إعدام مسؤول الخزانة إسكندر جلبي. كما انتقده البعض بسبب نصب تماثيل رومانية في قصره بعد عودته من المجر، ما أثار شبهات حول ولائه الديني.

> **إبراهيم باشا... من ظلال العرش إلى حبال المؤامرة.**

ويُـروى أن خُـرَّم أرسـلت رسـالة إلـى السـلطان تقول فيها: "تسـألني عن السبب في غضبي على إبراهيم باشـا، حين يجمعنا الله ثانية سـأذكر لك السـبب، وسـتفهمني". كانت هذه الرسـالة إحـدى أدوات الحـرب النفسـية التي مارستها خُرَّم ضد خصمها اللدود.

أما إبراهيم، فقد ارتكب خطأً فادحًا بزواجه سـرًّا من خادمة في القصر تدعى محسنة، ما أثار غضـب زوجتـه السـلطانة خديجـة، وغضـب السلطان نفسه الذي اعتبر الأمر خيانة.

مع تراكم الأخطـاء، وانسـحاب الحلفاء، وتصاعد وشـايات خُرَّم، بدا أن أيـام إبراهيم باتت معدودة. حصل السـلطان على فتوى من شـيخ الإسلام أبو السـعود أفندي تتيح له خرق قسـمه بعدم قتـل إبراهيـم، مقابل بناء مسـجد كفّارة لذلك.

وفي ليلة 22 رمضان 942هـ/5 مارس 1536م، غُدر على إبراهيم باشـا مخنوقًا في غرفته، بعد أن خدم السـلطان ثلاثة عشـر عامًـا. قيل إن قبـره وُضع في حديقـة قصره بعيدًا عـن المقابر السـلطانية، حتى لا يُعظّمه الناس بعد موته كما عظّموه حيًّا.

لقد كانت نهايته مأسـاوية بامتياز، وكتب عنه شـاعر فرنسـي: "نهاية حياة إبراهيم باشا لم تكن لأي سبب ولا جريمة سوى عظمته".

المراجع:

1. ثريا فاروقي، حجاج وسلطين الحج أيام العثمانيين، ترجمة: أبو بكر باقادر (بيروت: منشورات الجمل، 2010).
2. زكريا بيومي، التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري (جدة: عالم المعرفة، 1411هـ).
3. إبراهيم كالين، مقدمة إلى تاريخنا والآخر (بيروت: الدار العربية للعلوم، 2021).
4. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1981).